

- ولكنها تفعل ذلك لمصلحتك . اني معك في كل شيء كما تعلم ولكن قضايا الزواج شيء آخر . ثم من قال انك تريد الزواج من هدى ؟ سيتلخ اسمها بين الناس بعد قليل ، وقد تفقد وظيفتها كمعلمة ، ثم يضعون اللوم كله عليك .
- بحياتك كفى يا مازن . لن أقبل تدخلنا بشؤوني الشخصية .
- حتى من أمك وأخيك ؟
- ولا من أحد .
- تذكر انك في القدس ، في بلد عربي . أنت لست في لندن أو نيويورك .
- أشكر لك النصيحة .
- قالها رافد ، واتجه نحو المكتبة . فتبعه أخوه الى الغرفة الصغيرة التي هي صدفة رافد ، مملكته الصغيرة ويبيت أسرارها ، وقال : « أتذكر حكاية أختها ؟ »
- فانزعج رافد والتفت اليه محتدا : « وما شأن أختها ؟ » .
- لقد عالجتها عندما جرحت في حادثة القنبلة .
- ثم ماذا ؟
- ولكن بعض ذوي الألسنة الشريرة علقوا بأنك أوقعتها في حبك .
- فتأفف واستلقى على الصوفا (وهي ما زالت تحمل أثر هدى : فقد خيل إليه أنه يشم بقايا عطرها) قائلا : « مسكينة ثريا . كادت تفقد إحدى ساقها . ولكن الناس يستطيعون الايلام أكثر من العطف ، فلم يفرحوا لشفاؤها بل بحثوا عن القذارة قبل كل شيء » .
- وفجأة تذكر جمجمة الحمار (التي كانت قد حيرت ثريا حين أصر على غسلها) وأزجى إليها نظرة وقد استقرت على أحد رفوف المكتبة بمحجرين أجوفين ، وقواطعها العليا مطبقة على الفك الأسفل الطويل بعناد وصلابة . وأررف :
- « أترى هذه الجمجمة بين الكتب ؟ هذه الكتب كلها لا تتنفس الا أنفاس الشك والتساؤل . والجمجمة هي اليقين الوحيد في عوالم الشك والتساؤل هذه كلها . الموت هو اليقين . ولعل العكس صحيح أيضا . اليقين هو الموت . أما الحياة فهي الشك . أنا لا أعلم ان كانت ثريا وقعت في حبي أم لا ، ولا أعلم ان كنت أحب هدى أم لا . ومن كل أمر في حياتي أنا في شك . لا يقين الا في الموت - أو تحدي الموت . عندما أرى جماعة من شبابنا يدحرجون برميلا من الديناميت في حي يهودي جوابا على فتك اليهود بنسائنا في سوق الخضرة ، أدرك أن هناك من بلغ يقينا في حياته . أما البقية - » .
- ولكن يا رافد ، قضية فتاة تعرض نفسها -
- للوم الناس ؟ أمر غير مهم .